العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات

سلسلة المناهل الاخلاقية للشباب

١٠

الزُّهْد

مِفْتَاحُ صَلَاحِ الفَرْدِ والمُجْتَمَع

إعداد
موفق هاشم الرحال

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات
كربلاء المقدسة
ص.ب (٢٣٣)
هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: سلسلة المناهل الأخلاقية للشباب/ الزهد مفتاح صلاح الفرد والمجتمع.

اعداد: موفق هاشم الرحال.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية/ شعبة الدراسات والنشرات.

التصميم: علاء سعيد الاسدي.

الاخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل الخفاجي.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق: ١٩٢٥ لعام ٢٠١٤.

المطبعة: دار اكفيل للطباعة والنشر/ كربلاء المقدسة

الطبعة الاولى

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

محرم ١٤٣٦-تشرين الثاني ٢٠١٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين واكمل الصلاة وأتم التسليم على حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا إمام الزاهدين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطاهرين وصحبته الأبرار الميامين.

وبعد، فإنّ الأخلاق منظومة متكاملة من الصفات والسمات والسلوك، اعتمدتها الأديان السماوية وارتضاها العقلاء بعد إدراك أهميتها في شخصية الإنسان نفسه وأثرها على المجتمع ككل في توجيه بوصلته نحو الخير والبناء والاستقرار..حتى قال فيها المصطفى صلى الله عليه وآله: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الاخلاق**»[1].

ويعد الزهد قاعدة الأخلاق جميعاً وأساس ارتكازها، لذلك ارتأينا أن نخوض في موضوعه، وأن نتناول بعض آثاره النفسية ونتائجه الاجتماعية التي لا يمكن للمسلم فضلاً عن المؤمن أن يحيد عنها... لأننا من خلاله نستطيع أن نتقي الزُلل، ونصون أنفسنا من كل أشكال

(١) بحار الانوار ج١٦ ص٢١٠.

الضُلل، وفوق ذلك فإنه باب طمأنينة للنفس واستقرار للمجتمع وسعادته الدنيوية، فيصل حينئذ الإنسان الى سعادة الدارين: الدنيا والآخرة، وبذلك نرجو من العلي القدير أن نكون قد وُفِّقنا في تقديم اليسير خدمة للدين القويم.. جعلنا الله من الثابتين عليه والحمد لله رب العالمين وصلى على نبيه وآله الطاهرين.

الزهد لغةً:

ترك الشيء والإعراض عنه، يقال: زهد يزهد من باب منع وشرف، في الشيء وعن الشيء: رغب عنه وتركه، وقال ابن منظور: «إن الزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء كلها: ضد الرغبة...والزهيد: في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه... والزهيد:الحقير، وعطاء زهيد: قليل...»[1].

الزهد اصطلاحاً:

ويراد به في الشرع ملكة الإعراض عن الدنيا وعدم تعلق القلب بها، وعدم الاعتناء بشأنها وإن كانت نفسها حاصلة للشخص من طريق مُحلّل، وله مرتبتان: الزهد عن حرامها وعما نهى الله عنه من زخارفها، والزهد عن حلالها وما أباحه وسوّغه.

الزهد في الكتاب الكريم:

ورد في دستور الإسلام وشريعته ما يوضح حقيقة الزهد وبيان حدوده بشكل بليغ وظاهر وموجز، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿**لِكَيْلَا**

(١) (لسان العرب لابن منظور ج٦ / ص٩٧).

﴿تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾[١]، وقال عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾[٢]، فمن الواضح أنه إذا لم يتعلق القلب بشيء لم يتأثر بالحزن عند فوته، ولا بالفرح عند حصوله، وقد خاطب الله تعالى النبي الأقدس صلى الله عليه وآله وكل مخاطَب له قلب فقال عز وجل: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، ومدّ العين كناية عن النظر إليه إعجاباً ورغبة، والنهي إرشاد إلى وجود المفسدة في ذلك، فإنّه يُضاد الزهد، وتركه يستلزم تحقق صفة الزهد.

زهد النبي صلى الله عليه وآله:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أزهد الناس في الدنيا وزينتها، ولم يزل مخرجاً لما في يديه من مواريث آبائه وما أفاء الله تعالى من الغنائم والأنفال وجعله خالصاً له دون الناس، إلى فقراء أصحابه وذوي الخلة من أتباعه حتى استدان على المال ما قضاه أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاته إذ كان هو المنجز لعداته.[٤]

---

(١) الحديد: ٢٣.

(٢) آل عمران: ١٥٣.

(٣) الحجر: ٨٨.

(٤) ينظر: الإفصاح في الأعلام/ ص٢١٥.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في ذكر زهد النبي صلى الله عليه وآله: «... **فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنما كان قوته من الشعير وحلواه من التمر ووقوده من السعف إذا وجده، وإذا أُصبت بمصيبة في نفسك أو مالك أو ولدك فاذكر مصابك برسول الله صلى الله عليه وآله فان الخلائق لم يصابوا بمثله قط**»(١).

وقد خاض أمير المؤمنين عليه السلام في صفات النبي صلى الله عليه وآله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامة للأُمّة، وليُبيّن كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا في ظل الإيمان و العمل الصالح فقال عليه السلام: «**قد حقّر الدنيا وصغّرها، وأهون بها وهوّنها**»(٢).

فالعبارة إشارة واضحة إلى زهده صلى الله عليه وآله لأن من يحقر الدنيا ويوصي الآخرين باحتقارها، قطعا ليس له أدنى تعلق بها، وذلك لأنّ الشيء الحقير والتافه ليس له قيمة في استقطاب القلب والسيطرة على العقل، ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول: «**وعلم أنّ الله زواها**(٣)**عنه اختياراً**(٤)، **وبسطها لغيره احتقاراً**»(٥). والقول المبارك هذا شبيه ما ورد في الآية الشريفة من سورة الزخرف: ﴿**وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّة وَمَعارِجَ عَلَيْها**

(١) وسائل الشيعة/ ج٦ / ص٣١٤.
(٢) شرح نهج البلاغة للشريف الرضي ص٢٥٠.
(٣) «زوى» من مادة «زي» على وزن طي الجمع والفيض والابعاد.
(٤) «اختيار» بمعنى الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد «الاحتقار».
(٥) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المعتزلي ج ٧ ص٢١٧.

يَظْهَرُونَ*وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِئُونَ*وَزُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ثم واصل عليه السلام كلامه عن النبي صلى الله عليه وآله: «**فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً**[2]**، أو يرجو فيها مقاماً**»[3]، فأول مزية لرسول الله صلى الله عليه وآله عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع في مخالبها قط، ومن هنا كان أول أمر أكده الإمام عليه السلام في إطار وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو عدم اعتنائه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، ممّا جعله لا يكترث لجميع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنّهم لا يسألون الناس أجراً على ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم في الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق ويقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوة ظالم ولا يحسبون حساباً لأصحاب المال والثراء.

فضريبة الحياة المرفهة باهضة لا تتأتى إلّا من خلال مماشاة أصحاب

---

(١) سورة الزخرف/ ٣٣ـ ٣٥.

(٢) ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينة الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

(٣) شرح نهج البلاغة لاب ابي الحديد ج٧ ص ٢١٧.

الثراء ومداهنتهم; الأمر الذي يهدد بالصميم الحق والعدل والإدارة الصالحة الطاهرة.

وقد بلغ من زهد رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرافه عن الدنيا أنّه كان يجلس على الحصير، ويتوسد الليف حتى أثر في بدنه الطاهر، ولمّا قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. ردّ رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّما مثل الدنيا كمثل راكب مرّ على شجرة ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها**»[1].

زهد الوصي عليه السلام

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام واصفاً حاله ومعاشه: «**ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه... فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة...**»[2]

---

(١) بحار الانوار ١٦/ ٢٨٣.

(٢) نهج السعادة للمحمودي ج٥ ص ٢١.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يشير أحياناً في خطبه ورسائله إلى بساطة عيشه، فيقول: «**والله لقد رقعت مدرعتي هذه، حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى**»(١)

فأين الكلمات وأين الأقلام التي تستطيع أن تدرك شيئاً ولو يسيراً من زهد هذا المؤمن العملاق؟! هيهات هيهات لهم أن يصلوا الى رجل قال فيه صلى الله عليه وآله: «**يا علي لا يعرفك إلّا الله وأنا**»(٢)... فيا للعجب!! كيف استطاع أعظم زاهد في العالم بعد النبي صلى الله عليه وآله أن يكون صاحب أكبر إحساس بالمسؤولية اتجاه المجتمع والأمة والناس أجمعين؟! في زمان ومكان كانا يحملان مشاكِلِ وإشكاليات شائكة ومعقدة جدا جدا...؟! هذه المسؤولية التي دفع بسببها حياته الطاهرة عليه السلام.

وقد سُئل النبي صلى الله عليه وآله: من أزهد الناس وأفقرهم؟ فقال: «**علي وصيي وابن عمي وأخي وحيدري وكراري وصمصامي..**»(٣)، وقال أبو حمزة الثمالي: «ما سمعت بأحد من الناس كان أزهد من علي بن الحسين عليه السلام إلّا مما بلغني عن علي بن أبي طالب عليه السلام»(٤).

---

(١) نهج البلاغة للشريف الرضي ص ٣٥٠.
(٢) سلسلة الاعلام:ج٥ ص٩٠.
(٣) مناقب آل ابي طالب ج٣ ص٦٥.
(٤) الأمالي للشيخ المفيد:ص١٩٩ المجلس ٢٣ح ٣٣.

زهد عيسى وامه الطاهرة عليهما السلام

قيل أنه في يوم من الأيام أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لأمه: «**ياأماه إني وجدت مما علمني الله أنّ هذه الدار دار فناء وزوال ودار الآخرة هي التي لاتخرب أبدا! تعالي اجيبيني ياأماه نأخذ من هذه الدنيا الفانية الى الآخرة الباقية فانطلقا الى جبل لبنان وكانا فيه يصومان ويقومان الليل يأكلان من ورق الاشجار ويشربان من ماء الامطار!! فمكثا في ذلك زمانا طويلا....**»[1] فهما قانعان بما جادت به عليهما البرية والطبيعة من مأكل وملبس ومأوى؟

إن هذا النبي بما أعطاه الله من القدرات والامكانات ماجعلته يحيي الموتى بإذن الله! بل إنه قد أُنزلت له مائدة من السماء فيها ما لذّ وطاب من نعم الله تعالى! ناهيك عن امه الصديقة التي خاطبها الجليل عزّ اسمه عندما كانت في المخاض وهي مستلقية تحت النخلة؛ بأن تهز جذعها فقط عندها ستجد أن الرطب يتساقط عليها جنيا! ولاعجب من ذلك كله فهما حجج الله في أرضه.. ومع كل ذلك فقد زهدا في ذلك وأختارا العيش البسيط واكتفيا بحشائش الارض وبقلها واتخذاه طعاما لهما! إنهما نحتا صورة جميلة ورائعة في الزهد والقناعة والبساطة والذوبان في طاعة الله تعالى!

---

(١) الاخلاق والآداب الاسلامية ص٣٥٢.

كيف العروج نحو الزهد؟

همسات ترن بأسماعي دائما، وتراودني حينا بعد حين، تقول لي: «أين أنت من الزهد والزاهدين ؟ ذلك الطريق الصعب الذي لا يعرج فيه إلّا الأنبياء والأوصياء وذوي الدرجات العالية...!! إنك إنسان عادي لا تقوى على سلوك ذلك الطريق! فعش حياتك وانتعش وتنعم بدنياك، فالدنيا حق كما الموت حق! لنفسك وبدنك عليك حق! لا تضيّق عليهما بما لا تطيق! ما عليك إلّا أن تفعل الواجبات وكفى...! ».

إنها كلمات مصدرها النفس الأمارة بالسوء وشيطانها الرجيم الذي لا يترك حيلة إلّا وحاول أن يخدع بها الإنسان ليبعده عن الرقي في مدارج الكمال والإيمان...فحذارِ من خداع النفس والشيطان... وحذارِ من الغفلة بليّة هذا الزمان وكارثته العظمى! نعم هذه الغفلة التي مازالت تُبعدنا وتُنسينا عن كل ما من شأنه أن يؤدي بنا الى الزهد!! فكم من واحد منّا قد مرّ بلحظات معينة تحرر فيها من الغفلة فصار ينظر الى الدنيا بازدراء واحتقار...نعم من ينهض من نومه وسباته في عمق الليل ويتأمل في الدنيا، ويتذكر من كان يعيش بيننا من الأهل والأحبة، والجيران والأصحاب، الذين هاجروا الى رحمة الله، فإنّه لعمري سيُدرك سفاهة الدنيا ودونيّتها!!

ومن أراد أن يدوم لديه ذلك الشعور الدافع بصاحبه نحو الزهد فعليه بالآتي:

١. ذكر الآخرة ونعيمها وعذابها: من وصايا الامام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «**أكثر ذكر الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الاليم فإن ذلك يزهدك في الدنيا ويصغّرها عندك...**»[١].

٢. ذكر الموت: عن الباقر عليه السلام قال: «**أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر انسان ذكر الموت إلّا زهد في الدنيا**»[٢].

٣. تذكر الماضين من الأهل والأحبة والأقارب والجيران ممّن تخطّفهم ملك الموت، وأين هم الآن؟ وكيف حالهم؟ وماذا أخذوا معهم من الدنيا؟.

٤ـ السيطرة على الشهوة: عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كيف يصل الى حقيقة الزهد من لم تمت شهوته؟**»[٣].

مقومات الزهد

للزهد مقومات عدة لا يمكن للزاهد أن يكون زاهداً حقيقياً مالم يتبنى هذه المقومات أو أجزاء منها في عيشه وحياته، ويجعل منها منهلا يروي به ظمأ الروح فتنجلي غشاوة النفس والشيطان عن فطرة الحق، تلك الفطرة التي أودعها الله في جوهر كل إنسان خلقه على سطح هذه البسيطة، ومن هذه المقومات هي:

(١) البحار ج٧٤ ص٢٠٧ ح١.
(٢) الكافي ج٢ ص١٣١ ح١٣.
(٣) غرر الحكم ص٢٧٦ ح٦٠٦٤.

١. الصمت: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت**»[١]، فلا يتكلم الزاهد إلاّ بما هو ضروري ومفيد، لأن الكلام الزائد يسبب مشاكل وإشكالات للإنسان، تؤدي به إلى ضعف الإيمان والذنوب، وكما قال المثل العربي: إذا الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.

٢. الجوع: قال صلى الله عليه وآله: «**إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة، وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأ، وما ترك العبد أكلة يشتهيها إلّا كانت له درجة في الجنة**»[٢]، وزيادة على ذلك فإن كثيراً من الابحاث العلمية الطبية المتعلقة بصحة الجسم العضوية، توصلت الى ان التخمة لها آثار سلبية كبيرة على الانسان، حتى وصل ببعض تلك الابحاث الى اكتشاف آثار سيئة على الفكر والدماغ نتيجة لعدم الحمية الغذائية والتخمة في الاكل! كما توصلت الى أهمية الجوع في الوقاية من داء السكري وعلاجه وامراض ضغط الدم وغيرها من الامراض المزمنة... فالجوع مهم لكلا الجانبين: الروحي المعنوي، والمادي البيولوجي!

٣ـ السهر: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**السهر روضة المشتاقين**»[٣]،

---

(١) الوسائل ج١١ ص٧٩.
(٢) تنبيه الخواطر: ج١ ص ١٠٢.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣١٩ ح٧٣٧٥.

فكم هو شعور جميل أنك تجد نفسك ساهراً في طلب العُلا والقرب من الله وترى أكثر الناس نيّاما راقدين!؟ والسهر كسابقه ـ الجوع ـ يؤثر في الانسان إيجاباً، طبعاً هذا إذا لم يكن هناك فيهما مبالغة مفرطة تودي بصاحبها إلى الرهبنة التي نهى عنها إسلامنا العظيم، كما تؤدي به الى التدهور في صحته وانهيارها الأكيد!.

٤. العزلة: رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**العزلة حسن التقوى**»[١]، ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العزلة عبادة، وان أقل العيب على المرء قعوده في منزله**»[٢]، ورُوي الإمام الصادق عليه السلام: «**صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى ومتحرس بحراسته...**»[٣]، ورُوي أمير المؤمنين عليه السلام: «**العزلة افضل شيم الأكياس**»[٤]، ورُوي عن عليه السلام: «**نعم العبادة العزلة**»[٥]، ولا نعني بالعزلة مجانبة الناس وعدم المسؤولية تجاه المجتمع، بل لا تقاطع بينهما إطلاقاً، فكثير من الزهاد نشاهدهم معزولين عن الناس في الأمور الدنيوية البحتة ولكنهم بدخالة أنفسهم يعيشون همّ المجتمع وآلامه ويسعون في البِر والمساعدة وأعمال الخير، ولكن بلا ظهور ورياء وشهرة!

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣١٨ ح٧٣٤٩.
(٢) مشكاة الأنوار: ص٢٥٧ فصل ٤.
(٣) مصباح الشريعة: ص٩٩ ب٤٥.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٣١٨ ح٧٣٥٠.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم:ص٣١٩ ح٧٣٦١.

٥. الذكر: لقد مدح الله جلّ ذكره الذاكرين والذاكرات من الرجال والنساء حيث قال: ﴿...**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[١]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «**أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون**»[٢]، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**ما أخلص العبد الايمان بالله عز وجل أربعين يوما أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله عز وجل أربعين يوما إلا زهده الله عز وجل في الدنيا وبصره داء ها ودواء ها فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه**»[٣]، ولا أبالغ إن قلت أنّ من يجرب الذكر ويداوم عليه، فإنه سيجد أثر ذلك واضحا على حياته كلها، وسيكون في رِضاً عن نفسه غاية الرضا، وينتابه شعور دائم بأنه في عين رحمة الله ورعايته وتسديده.

الزهد سهل ممتنع!

من الجدير بالذكر أنّ هنالك أشياء صعبة ممتنعة من جانب، لكنها سهلة يسيرة من جانب آخر... ولا أظن أنّه يوجد كالزهد أمراً (سهلاً ممتنعاً)! فهل رأيت أسهل من:(قلّة الكلام دونما يريد رب السلام... وعدم الإكثار من الطعام.. وإيثار السهر على المنام.. مع قليل اختلاط وعزلة يرضى بها الإسلام.. وذِكرٍ لله وآخرته على الدوام)!؟ إنّها أمور ليست بمثابة الإقدام على الحرب أو ما أشبهها من الأمور الشاقّة. ولكن

(١) الاحزاب: ٣٥.
(٢) مكارم الأخلاق:ص٣١١.
(٣) البحار ٥٣: ٣٢٥.

هل ذلك من الميسور؟

إنّ من الحق أن نقول: (مشكل جدا)، لكن هذه الاشكالية نابعة من تصوراتنا النفسية التي لا تريد أن ترى الأشياء على حقيقتها؛ وذلك لأن النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إضافة الى ضعف الإرادة وفتور العزيمة في الإقدام الى ما ذُكر من أمور يمكن بها ان يكون الانسان زاهدا.. ان الزهد مهما كان شاقاً فمن اللازم على الإنسان أن يحصله، وإلّا سوف يعضُّ على يديه من الندم.. يوم يرى مقامات الزاهدين، فهل يفيد الندم؟

الزهد قاعدة الاستقامة

إنّ الاستقامة تُبنى على أساس الزهد في الدنيا، فمن المشاكل والمصاعب التي تهزّ الإنسان بكل وجوده وكيانه ولا تترك له مجالا للاستقامة على الطريق: هي نيّته المسبقة في البحث عن المراكز والمناصب ومغريات الدنيا الأخرى. وهكذا نموذج حينما يدخل حلبة الصراع فيتأخّر عليه الحصول على ما كان يصبو إليه من الماديات فإنه سيُصاب بمزيد من الإحباط، ويكون فوق ذلك عرضة مباشرة لردود الأفعال التي يتّخذها هواه، فهو كان يتصوّر أو يصوّر لنفسه أنّ عملية الصراع ينبغي تجرّدها عن تقديم التضحيات، بدءاً ببذل المهج وانتهاءً بتقديم الماديات، وهو بين هذا وذاك كان يعتقد بأن السير في عملية الجهاد عبارة عن عملية أخذ لا عطاء.

أمّا الزاهد بماديات الدنيا؛ كأمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حيث دخل الحرب على بيّنة من أمره؛ دخل وهو يعرف ما عليه وما له. كان يعرف أنّ عليه الاستقامة في المعركة بإخلاص، وأنّ له عظيم الثواب من الله تبارك وتعالى.

وقد شرط الله سبحانه وتعالى الزهد والرغبة عن الدنيا على أئمة المسلمين، كما جاء في دعاء الندبة المأثور، (بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها)[١]. ولمّا علم الله أنهم سيكونون أوفياء لهذا الشرط أعطاهم الله ما أرادوا من نصر وعزة وكرامة، (فشرطوا لك ذلك وعَلِمْتَ منهم الوفاء به فقبِلْتَهم وقرّبتهم وقدَّمت لهم الذكر العليّ والثناء الجليّ وأهبطت عليهم ملائكتك وكرّمتهم بوحيك ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذريعة إليك والوسيلة الى رضوانك)[٢].

الزُّهد علامة أهل الخير

من أهم صفات الأنبياء والأولياء وأتباعهم عدم تعلُّقهم بشيء من الدُّنيا لنفسه أو طمعاً في خلوده، فهم مُدْركون لحقيقة الدُّنيا ومتاعها وما فيها، وعاشقون لخالقهم تعالى، راغبون في ثوابه، مُقبلون على آخرته الَّتِي هي خيرٌ وأبقى، رُوي عن سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما اتَّخذ الله نبيّاً**

(١) أدعية جامع الاحاديث ج١ ص١٩٧.
(٢) المصدر نفسه.

إلاَّ زاهداً»[١]، ولا يُمكن أن نتصَّور خلاف ذلك، وبما أنهَّم وأتباعهم راغبون في الآخرة وفي كُلِّ خيرٍ يوصل إليها، اختاروا الزُّهد طريقة في هذه الحياة، لأنَّهم علِموا أسراره وعواقبه، يقول عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ علامة الرَّاغب في ثواب الآخرة زهدُهُ في عاجل زهرة الدُّنْيا...**»[٢]، وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «**جُعل الخير كلُّه في بيتٍ وجُعل مفتاحه الزُّهد في الدُّنيا**»[٣] ، فالمهم هو عدم الطمع أو التعلُّق بالدُّنْيا لنفسها، لذلك قد نرى غنياً زاهداً بالدُّنيا، وقد نرى غير غني تعلَّق قلبه بها، فالكثير من الأولياء والأتقياء والعلماء كان لهم خدمٌ وحشمٌ بل اشتُهر بعضهم بالغنى واليُسْر، دون شكٍ في زهدهم وورعهم واحتياطهم في أمر الدِّين، فهذه سُنَّةُ الإسلام الأصيل، رُوي عن سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله: «**طوبى لِمَنْ تواضع لله عزَّ ذكره، وزهد فيما أُحلَّ له من غير رغبة عن سُنَّتي، ورفض زهرة الدُّنيا من غير تحوُّلٍ عن سُنَّتي**»[٤].

الزهد وأثره على الصحة النفسية

للزهد أهمية كبيرة في الصحة النفسية؛ إذ أن الانسان بإعراضه عن الدنيا وزخرفها قد استطاع التخلص من اهم واكبر دواعي القلق النفسي والاسر والضغط الفكري المترتب على حب الدنيا وما فيها من

(١) ميزان الحكمة: ج١ ص١٦١.
(٢) البحار: ج٧٠ ص٥٢.
(٣) مستدرك سفينة البحار: ج٤ ص٣٨٠.
(٤) البحار: ج٧٤ ص١٢٦.

مغريات، حيث أكدت دراسات علم النفس الحديث على أن القلق النفسي يعتبر مصدرا رئيسا لكثير من الأمراض النفسية والعضوية والتي تترك آثارها الواضحة على الانسان، وهذه حقيقة أرشدنا إليها مربّي البشرية ﷺ حيث قال: «**الرغبة في الدنيا تكثر الهمّ والحزن، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن**»[1].

فالأنسان الذي يحب الدنيا ومغرياتها يشعر بأنه اسير لكثير من الحاجات على الدوام، وإن هذه الحاجات بطبيعة الحال لن تنتهي بها قائمة الطلبات، ناهيك من ان الحاجة نفسها بعد أن يحصل عليها فأنه سيسعى الى زيادتها وتكثيرها، وهكذا الحال يبقى راكضا وراء حوائجه التي لا تنتهي ولا تقف عند حد معين!

فالشخص الذي يحب المال مثلا، نجده اولا يسعى للحصول على بضعة دولارات، وبعد حصوله عليها سوف يسعى الى زيادتها أكثر، فيريد المئة، ثم الألف ثم المئة ألف، ثم المليار وهكذا يكون في سعي دائم لا ينتهي أبـداً...! وأمّا الشخص الذي يحب المناصب والمراكز الاجتماعية، فهو يسعى في بداية الامر ان يكون مديرا للدائرة التي يعمل فيها، وبعدها يأمل أن يكون مديرا عاما، فوزيرا، حتى يسعى بعد ذلك أن يكون رئيسا للدولة، ولا ينتهي أمله!!! فهو يرجو أن يكون حاكما على الكرة الارضية بأسرها! فهو في لهف دائم خلف المناصب والاموال

(١) مشكاة الانوار ج١ ص٢٠٦.

والمغريات.. كظمآن في أرضٍ قاحلة يسير ويسعى خلف السّراب.

إذن من خلال ما تحدثنا به يتضح أن الصحة النفسية ترتبط بعلاقة عكسية مع عدد الحاجات وكميتها، فكلما كنت زاهدا بكثير من الحاجات فإنك تتميز بصحة نفسية جيدة، أما اذا كنت عكس ذلك وكنت اسيرا لأغلب الحاجات الدنيوية فإنك لعمري ستعيش طَوال حياتك لا تنفك عن نوبات القلق الفكري والضغط النفسي وهم الاستحواذ على هذه الحاجة أو تلك الرغبة!

فيا أخي المؤمن و يا أختي المؤمنة إذا أردتم الصحة النفسية الجيدة البعيدة عن الكدر والهم والقلق والغم فعليكم أن تزهدوا بكثير من حوائجكم الدنيوية والاكتفاء بما هو ضروري منها، ولا تقولوا إننا أناس عاديون ولسنا كالنبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام؛ لأني سأقول لكم انهما اسوة وقدوة لنا، فعلينا الاقتداء بهما، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[1] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فأن الزهد بحوائج الدنيا الدنية يمكن للإنسان المؤمن أن يسير فيه ويرتقي شيئا فشيئا حتى يصل الى المراتب العليا التي يكون معها في اعلى مرتبة من الطمأنينة والاستقرار والسعادة.

إن عصرنا الحديث عصر تطورت فيه الحياة وكثرت معه الحاجات

(١) الاحزاب ٢١.

وتشعبت رغبات الانسان، مما نتج عن ذلك بروز ظاهرة القلق المزمن لدى الناس وخاصة الشباب منهم! واصبحت الامراض النفسية سمة تطور الحياة وكثرة حاجاتها، كما قال علماء النفس، واكدته دراساتهم العلمية التجريبية.

وإن الذي نتحدث فيه ونذهب اليه من الدعوة الى الزهد بالدنيا وكثرة حاجاتها المغرية والمزخرفة هي ليست بفعل الأدلجة الاسلامية فحسب، وانما هي نتيجة يمكن أن يصل اليها العقل المنطقي السليم حتى وإن كان بعيدا عن الدين الالهي القويم.

كيف بنا أحبتي ونحن اليوم نعيش عصر القرية الكونية الصغيرة، وزمان زحمة الحاجات وتشعب المتطلبات وكثرة الرغبات والمغريات، إنه زمن الاستغراق في مشاغل الحياة الدنيا والاندكاك فيها، وهذا الشيء لا يحتاج الى دليل، فأنت تشاهد بأم عينك الناس يخرجون من الصباح الى العمل ولا يعودون إلّا بعد مغيب الشمس، وهكذا فإن معظم الناس واغلبهم نجدهم يقضون جلّ نهارهم في العمل، وهذا الشيء جيد، لأن الأمم لا تتقدم إلّا بالعمل، ولكن الذي يؤسف له أن اغلب هؤلاء الناس الذين غرقوا بالعمل وجزئياته، صاروا يلهثون وراء الحوائج الدنيوية والمتطلبات التي اصبحت بحكم العرف والضغط الاجتماعي ضرورية لا يمكن الحياد عنها! فصار التنافس في البيوت والسيارات والملابس أمرا طبيعيا، حتى ان هذه الاشياء فقدت

فلسفتها التي وجدت من اجلها، واضحت مظاهر الاسراف والتبذير في اكثر جزئيات حياتنا لا تفارقنا، وبذلك امسينا بعيدين عن جوهر الدين وروحه التي تؤكد لنا بأن: «الدنيا مزرعة الاخرة»[1] وأنها وسيلة لبلوغ الغاية الاسمى والسعادة الابدية.

فطوبى للزاهدين الذين اكتفوا بالقليل عن الكثير، ولم يفرطوا بعبادة ربهم التي من اجلها خُلقوا، الذين اتبعوا نبيهم صلى الله عليه وآله وائمتهم عليهم السلام ولم يكونوا أُسارى للدنيا واوهامها الزائفة...

الزهد واثره في المجتمع

يذهب كثيرٌ من علماء الاجتماع الى أن شراهة الاستحواذ والاحتكار بالمال والسلطة والتنافس في امور الدنيا والتزاحم والتسابق في استملاك ادوات العيش والثراء، كلها لها الاثر المباشر في خلق أكثر المشاكل الاجتماعية وتغذيتها، وما ينتج عنها من امراض تمس المنظومة القيمية والاخلاقية لذلك المجتمع وافراده المنتمين له.

إذن الرغبة في الدنيا وطول الامل في العيش والحياة وما ينتج عنها من اعراض جانبية أهمها الانانية المقيتة وحب الذات، وكراهية الآخر المنافس والمزاحم له في دروب الحياة، كل ذلك اسباب رئيسية ومباشرة في تأجيج الصراعات والنزاعات بين افراد المجتمع الواحد، ناهيك عن

(١) البحار ج١٠٧ ص ١٠٩.

النزاعات والحروب التي تحدث بين المجتمعات والدول فكلها تعود الى حب السيطرة والتسابق في نهب الثروات!

ولو قمنا بنظرة فاحصة حول العالم لوجدنا أنّ اكثر المناطق فقراً وحرماناً هي مناطق النزاعات والصراعات الناتجة عن التنافس على المكاسب المالية أو المنصبية وما شاكلها من مغريات دنيوية بحتة تؤدي بالمجتمعات الى الظلم والفشل والتخلف والجهل، وهذا الشيء اكثر ما يكون في مجتمعاتنا الاسلامية مع الاسف الشديد؛ لأنها بحكم الانانية وحب السلطة وما نتج بعدها من كراهية تجاه الآخر المخالف او المزاحم وقعت ضحية لهذه الامراض المنهكة التي أكد القرآن الكريم نتائجها: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[1].

إن من يطالع التاريخ ويتدبر آيات القران جيداً يجد ان هذه الامراض نفسها هي من كانت وراء الذين وقفوا بوجه الانبياء ورسالاتهم؛ لأن هؤلاء وجدوا أن هذه الاديان تهدد ما كان عندهم من امتيازات حصلوا عليها وأمنتها لهم الأوضاع السابقة لكل بعثة أو رسالة ارتضاها الله لإصلاح المجتمع آنذاك.

فيا أخوتي إنّ شيوع ادنى مستوى من الزهد في المجتمعات لكفيل بأدواء هذه المصائب والأمراض التي أُبتلينا بها ومازلنا، قال ﷺ: «**إن**

(١) الأنفال: ٤٦.

صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخرها بالشح والأمل»[١]، ومن خلال الزهد نستطيع القضاء على كل أشكال الأنانية والكراهية والتنافس على الدنيا وسيكون حينها المجتمع خالٍ من أي صراع أو نزاع يمكن أن ينخر تماسكه ووحدته أو يؤدي به الى الخراب، وكما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «**الزهد مفتاح صلاح**»[٢]، عندئذ سيرتقي المجتمع لا محال في التطور والازدهار ويكون موضع رحمة الله سبحانه وتعالى ونصره المبين.

تأثير الزاهد في الناس

إني أرى أن المجتمع الإسلامي اليوم بحاجة ماسّة إلى أمثلة حيّة من الزهّاد الذين يعزفون عن الحياة الدنيا عزوفاً كاملاً، حتى يقتدي بهم أناس لم تمت في أنفسهم غريزة حب العروج والسموّ الروحي، وانعدام مثل هؤلاء الزهّاد نقص كبير في مجتمعنا، فقد أصبح كثير من الناس مصداقاً لما قاله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الشعر المنسوب إليه، الذي خاطب به ولده:

بنيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً

في صورة الرجل السميعِ المبصرِ

فأيّ فرق بين البهيمة، وبين الشخص الذي همّه المأكل، والمشرب، والمسكن، والمركب، والمنكح، والمنصب؟ بل البهيمة أفضل، فإنها

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين ج١٠ ص٦.
(٢) ميزان الحكمة ج٤ ص١٧٦.

لا تحمل ما يحمله الإنسان من عقل وإرادة، فلا تلام على اختلافها بين النثيل والمعتلف، ولذا قال سبحانه: ﴿**أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾[١]، نعوذ بالله تعالى.

الزهد في المال

يُعتبر المال وسيلة مهمة في التعامل بين الناس وحاجة لا يمكن الاستغناء عنها، وهو بذلك لا يخرج عن حد الوسيلة أو الواسطة، لكن هناك كثير من الناس اصبح عندهم المال غاية مرجوة لا يحيدون عنها أبدا، وأصبحوا يعملون أي شيء من أجل الحصول عليه، فهم يحبون المال حبا شديدا إلى حد الجنون (وتحبون المال حبا جما)[٢]، وتجدهم يلهثون صباحا مساء وراء المال وكسبه وكأنهم لم يُخلقوا إلّا لأجله.

فما أحوجنا نحن المسلمون الى قدر معين من الزهد بالمال حتى يكون لدينا قدر يفي بالتكافل الاجتماعي الذي نحن في امس الحاجة اليه، فلا هناك تأدية للحقوق الشرعية المالية بدون أدنى مستوى مطلوب من الزهد بالمال، ولا زكاة ولا خمس بدونه ايضا، فحري بنا احبتي ان نروض النفس ونربيها حتى تحقيق المستوى الضروري من الزهد به، لان حب المال حالة مرضية يترتب عليها كثير من المفاسد ليس اقلها البخل، ناهيك عن التعب النفسي والقلق الذي يصاحب

(١) الاعراف: ١٧٩.
(٢) الفجر/ ٢٠.

الجري وراء المال والانهماك في جمعه، ولربما يصل بالبعض أنه يقدم على القتل والجريمة -والعياذ بالله- من أجل الحصول على المال والاستحواذ عليه.

أما المؤمنون الحقيقيون فلديهم المستوى المطلوب من الزهد والذي لولاه ما وصلوا الى الايمان، فهؤلاء ينظرون الى المال بكونه وسيلة لا غاية، وقيمة الانسان عندهم تنحصر بدينه واخلاقه لا بما يملكه من الاموال، فلو نظرنا بعين الواقع لوجدنا ان نتيجة الاغنياء والاثرياء هي عينها نتيجة الفقراء والمعدمين، فالموت كأس والكل وارده وشاربه، فينتقل الانسان بعدها الى محطة الحساب والوقوف بين يدي الله فيُسأل حينئذ الغني عن ماله كيف جمعه وفيما أنفقه، عندها يعض على يديه ويقول يا ليتني كنت من الزاهدين.

فيا أحبتي مادام في العمر بقية علينا أن نحطم قيود حب المال والحرص في جمعه، وان نرتقي ولو درجات متواضعة في سلم الزاهدين؛ لان حب المال والانغماس فيه لا يدع لنا مجالا في اقتفاء طريق الحق والدعوة اليه، ولنضع نصب أعيُنا نهاية الاغنياء المأسورين بالمال! أين هم وأين مصيرهم؟ وهل اخذوا من الدنيا غير الكفن؟ إنهم كانوا يعيشون الأوهام!

مالقصور إلّا خانات

مما يثير العجب هذه الايام مانشاهده عند كثير من الناس وهم يبالغون في بناء البيوت! ويجعلون همهم هذا يأخذ جهد سنين طويلة وأتعابها! وكأنه سيبقى في ذلك البيت الى الأبد! ولو تأملنا في قصة أحد العظماء لأعتبرنا منها فقد كان ابراهيم بن أدهم ملكا، وكان ذات يوم جالسا في قصره الضخم، فسمع ضوضاء على باب القصر ورأى فقيرا يريد الدخول لقضاء حاجته والحرس يمنعونه.

وقال الفقير: أليس هذا (خانا) (وهو المكان المشاع الذي ينزل فيه المسافرون لقضاء حوائجهم فيه لفترة قصيرة) فلما سمع الملك كلام الفقير اهتاج غضبا لتطاول الفقير عليه وعلى قصره، فأمر بإحضاره ولما أُحضر بين يدي الملك قال: لماذا كنت تريد الدخول؟

قال: حتى أقضي حاجتي فيه وأستريح ساعة.

فقال: فلماذا سميت القصر (خانا)؟

فقال: أيها الملك هل أنت حصلت على القصر بنفسك أم كان قبلك لغيرك؟

قال إبراهيم: بل كان لجدي ثم لأبي، ثم الآن لي.

قال الفقير: وبعدك لمن يكون؟

قال: لولدي.

قال الفقير: هل الخان غير هذا؟ أليس الخان هو البيت الذي ينزل فيه إنسان ثم يرحل ثم ينزل فيه آخر ويرحل؟

نزلنا ههنا ثم ارتحلنا
كذا الدنيا نزولٌ وارتحالُ

فتنبه إبراهيم، وعزم على ترك الملك ثم تسلل ليلا من القصر ولبس المسوح وصار من الزهاد المعروفين.

هل السعادة متوقفة على الغِنى والثراء؟

يُحكى ان شخصا قد كان ثريا جدا، له من الاموال والاملاك ما جعله يجرب كل الملذات ويفعل ما تأمره الشهوات، لديه فلل فارهه، وجوار غانية، وحدائق نضره، وبساتين واسعة، فيها انهار جارية! بقي حاله هكذا سنين عديدة، غير أنه ملّ هذه الحياة المترفة وشعر أخيرا أن هذا النعيم لم يعد مجديا في السعادة التي ارادها، سعادة الروح الصافية التي لا يشوبها قلق ولا أرق، تلك سعادة أهل الفطرة السليمة الذين يكتفون بالبساطة في المأكل والملبس والمسكن، لذلك راح يسأل أهل الخبرة من السعداء؛ كي يحذو حذوهم، فأرشده الناس الى أحدهم فلما اتاه سأله: كيف أصبحت سعيدا طول الوقت لا ينتابك هم ولا حزن ولا غم ولا كدر؟ فأجاب الرجل السعيد: أنا لم أذق طعم السعادة

إلّا بعد أن زهدت بالأموال والقصور والملذات والشهوات،ولم أهتم للظهور بين الناس والجري خلف المناصب، واكتفيت بزاد قليل مع بيت من قصب لا لغو فيه ولا صخب، وها أنا ذا اشتغل بذكر ربي وعبادته عن الدنيا وزخرفها، وما تراه من عمل ظاهره للدنيا ما هو الّا لأن الله جلّ ذكره قد أمر به من أجل إشاعة الخير والعمل الصالح بين الناس... فإذا أردت أن تكون سعيدا فعليك أن تتذكر دائما بأن الدنيا محطة نمر بها الى دار القرار والنعيم الأبدي، دار الخير المطلق والسعادة السرمدية.

من هذه الحكاية نلحظ أن السعادة ليست متوقفة على الثراء والغنى، فرب غني حياته بائسه حزينة او فقير حياته سعيدة هانئة، قال صلى الله عليه وآله: «**الفقر فخري وبه افتخر**»[1]، وذلك عندما يكون الفقير فقيرا الى الله وحسب، وبذلك هو اغنى الاغنياء! لأنه اكتفى بالله سبحانه عمن سواه، فالمعيار والمدار لحقيقة الغنى هو الاكتفاء بالله فقط لا غير.

فكثير من الناس نراهم ـ حسب العرف ـ فقراء لكنهم اغنياء؛ وذلك لأنهم زهدوا بكل شيء يتعلق بالدنيا الدنية، وما تعلقهم الّا بالله سبحانه وحده، كما نرى الكثير من الناس اثرياء ـ حسب العرف ـ لكنهم فقراء أشد الفقر؛ لانهم ما زالوا يركضون بهمة عالية وراء شهواتهم وملذاتهم ووراء الاستحواذ على الاموال وزيادتها بأي وسيلة! واكتفوا

(١) بحار الانوار: ج٧٢/ ص٥٥.

بالدنيا عن الاخرة وزهدوا عن طاعة ربهم الذي اليه يرجعون.

فيا اخي المسلم: ها انت قد عرفت بأن السعادة آتية من الزهد وملازمة له دائما ومترتبة عليه، لذلك اذا اردت السعادة اليقينية فما عليك الّا اختيار طريق الزهد وقلع شجرة حب الدنيا من جذورها، فبادر من الآن في تهذيب نفسك وروضها الرياضة الصحيحة الشرعية بالاكتفاء بضروريات العيش ولا تطلق لها العنان في نزواتها وما تصبوا اليه؛ لأنها ستؤدي بك نهاية المطاف الى حضرة الشيطان الرجيم، وعندها ستكون حليف التعاسة والشقاء وهذا خلاف لما لو كنت زاهداً عابداً فحينها ستكون في حضرة الرحمن الرحيم...وهي السعادة الكبرى.

القناعة وعلاقتها بالزهد

حدّ القناعة هو الرضا بما دون الكفاية، والزهد: الاقتصار على الزهيد، أي القليل، وهما متقاربان، وفي الاغلب إنما الزهد هو رفض الامور الدنيوية مع القدرة عليها، وأما القناعة فهي إلزام النفس الصبر عن المشتهيات التي لا يقدر عليها، وكل زهد حصل عن قناعة فهو تزهد، وليس بزهد، وكذلك قال بعض الصوفية: القناعة أول الزهد، تنبيها على أن الانسان يحتاج أولا إلى ردع نفسه وتخصصه بالقناعة ليسهل عليه تعاطي الزهد، والقناعة التي هي الغنى بالحقيقة، لان الناس كلهم فقراء من وجهين: احدهما لافتقارهم إلى الله تعالى كما قال:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١] .

والثاني: لكثرة حاجاتهم، فأغناهم لا محالة أقلهم حاجة، ومن سدّ ما يفتقر اليه بالمقتنيات فما في انسدادها مطمع، وهو كمن يرقع الخرق بالخرق، ومن يسدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على تناول ضرورياته فهو الغنى المقرب من الله سبحانه، كما اشار إليه في قصة طالوت: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[٢]، قال أصحاب المعاني والباطن: هذه إشارة إلى الدنيا.

وسُئل أحد الأئمة عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣]، فقال: «**هي القناعة**».

لا ريب أن الحياة الطيبة هي حياه الغنى، وقد بينا أن الغنى هو القناعة، لأنه إذا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى الناس أقلهم حاجة إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغنى الاغنياء لأنه لا حاجة به إلى شيء، وعلى هذا دل النبي بقوله صلى الله عليه وآله: «**ليس الغنى بكثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس**»[٤].

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) البحر المديد سورة التوبة ج٣ ص١٤٠.

وقال الشاعر:

فمن أُشرب اليأس كان الغني

ومن أُشرب الحرص كان الفقيرا

وقال الشاعر:

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة

فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

وقال بعض الحكماء: «المخير بين أن يستغني عن الدنيا وبين أن يستغني بالدنيا كالمخير بين أن يكون مالكا أو مملوكا»، ولهذا قال علي عليه السلام: «**تعس عبد الدينار والدرهم.. تعس فلا انتعش، وشيك فلا انتقش**»[1].

وقيل لحكيم لم لا تغتم ؟ قال: «لأنى لم أتخذ ما يغمني فقده».

وقال الشاعر:

فمن سره ألا يرى ما يسوءه

فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا.

وقال أصحاب هذا الشأن: القناعة من وجه صبر، ومن وجه جود، لان الجود ضربان: جود بما في يدك منتزعا، وجود عما في يد غيرك متورعا، وذلك أشرفهما، ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلّا لمن يعرف

(١) المجازات النبوية ـ الشريف الرضي: ج١ ص٣٢٣.

الدنيا ما هي، ويعرف عيوبها وآفاتها، ويعرف الاخرة وافتقاره إليها، ولا بد في ذلك من العلم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾[1]. ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الاخرة وهو يبيعها بها، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...**﴾[2] ، والكيس لا يبيع عينا بأثر، إلاّ إذا عرفها وعرف فضل ما يبتاع على ما يبيع.

(١) القصص: ٧٩.

(٢) التوبة: ١١١.

أهم نتائج الزهد

لقد تبين لنا من خلال ما تقدم اهمية الزهد الكبيرة التي لابد منها، وفوق ذلك فإن له نتائج مهمة جدا على الصعيدين النفسي والاجتماعي وأهم هذه النتائج هي:

١. التحرّر:

ومن نتائج الزهد: الحرية والتحرّر، فإن بين الزهد والحرية روابط قديمة وقويمة، إن الحاجة والافتقار ميزة الاستبعاد، والاستغناء ميزة الحرية.

إن أقوى الآمال في حياة الأحرار هو وضع الأثقال عن كاهلهم، والخفة والنشاط في الحركة والتنقل، وإنما يجعل هؤلاء زادهم الزهد والقناعة ليقللوا بذلك من حوائجهم المادية فيطلقوا أنفسهم من أسر الأشياء والأشخاص وقيودهما.

إن الحياة المادية للإنسان - كسائر الحيوانات الأخرى - تحتاج إلى سلسلة من الأمور الطبيعية والضرورية التي لابدّ منها، كالهواء للتنفس والأرض للسكن والطعام للأكل والماء للشرب والثوب للستر،

فالإنسان لا يستطيع أن يكتفي بذاته عن هذه الأمور وأمور أخرى كالنور والحرارة، ولا أن يتحرر من قيودها تحرراً مطلقاً.

ولكن، هناك سلسلة من الحاجات ليست طبيعية ولا ضرورية، وإنما حُمّلت على الإنسان على مدى تاريخه الطويل من قبله هو أو من العوامل التاريخية والاجتماعية الأخرى، وقد كانت عاملاً فعالاً في الحد من حريته شيئاً فشيئاً.

والأمـور التي تُحمل على الإنسان من الخـارج بصورة قسرية للاضطرار السياسي مثلاً، ليست في خطرها عليه كالأمور النفسية التي تعمل على أن تجرّه من إطاره الداخلي إلى إطارها الغريب، وعلى هذا فإن أخطر القيود على الإنسان إنما هو هذه القيود التي تعزله عن نفسه.

وتـرى الفلسفة الميكانيكية لهذه العوامل التي تـؤدي إلى عجز الإنسان وضعفه: أن الإنسان يحاول - من جهة - أن يكسب حياته صفاءً وبهاءً ورونقاً وجلالاً، فيقبل على التجمل والتنعم بكماليات الحياة، ولأجل الحصول على القوة والقدرة يقبل على تملك الأشياء. ومن جهة أخرى يعتاد على وسائل للتنعم والتجمل والقوة والقدرة شيئاً فشيئاً، ويعجب بها فيعشقها، وتنشأ بينه وبينها روابط خفية دقيقة تشده إليها، فيصبح ذليلاً لها عاجزاً أمامها. وحينئذ يتحول الشيء الذي كان مادة لصفائه ورونقه إلى سبب لذهاب رونقه وصفائه، والذي كان

وسيلة لقدرته وقوته إلى سبب لضعفه وعجزه في دخيلة نفسه. فيصبح لها كالعبد المدين لمولاه لا يقدر أمامه على شيء.

إن تقيد أي إنسان بالزهد - إن صح التعبير بالتقيد - نابع من أصول فطرية، فإن الإنسان بطبعه يميل إلى تملك الثروة والاستفادة من مُتَع الحياة، ولكنه حينما يرى أن هذه الأشياء كلما منحته القدرة على الحياة في الظاهر سلبته القدرة الإرادية، في واقع الحال على المدى نفسه، وجعلته: (عبداً لها ولمن في يده شيء منها) فهو يثور - حينما يرى ذلك - على هذه العبودية. ويصطلح على هذه الثورة بالزهد.

وإنما أصبح الإمام علي عليه السلام حراً بمعنى الكلمة لأنه كان زاهداً بمعنى الكلمة، وكان عليه السلام كثيراً ما يعبر في خطبه في نهج البلاغة عن الزهد بالحرية، وعن الشره والنهم بالعبودية.

يقول عليه السلام في بعض كلماته القصار: «**الطمع رقٌّ مؤبّد**»(١).

ويصف زهد عيسى بن مريم فيقول: «.. **ولا طمع يذله**»(٢).

ويقول عليه السلام: «**الدنيا دار ممر لا دار مقر، والناس فيها رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقته، ورجل اشترى نفسه فأعتقته**»(٣).

---

(١) نهج البلاغة للشريف الرضي ص ٨١٧.
(٢) نهج البلاغة للشريف الرضي ص٣٤٧.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج١٨ ص ٣٢٩.

وأصرح من الجميع كتابه إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري: «... إليك عني يا دنيا! فحبلك على غاربك! قد انسللتُ من مخالبك، وأفلت من حبائلك!... اغربي عني، فو الله لا أذل فتستذليني ولا أسلس فتقوديني»[١].

نعم، إن زهد الإمام عليه السلام ثورة على الذل في اللذة، وعلى الضعف في الشهرة، وعصيان على عبودية الدنيا، فالسلام عليه يوم ولد ويوم يبعث حياً![٢]

٢. المعنوية:

ومن نتائج الزهد: إيجاد المعنوية في روح هذه الحياة المادية. ومن الواضح أننا لا نقصد هنا الماديين في هذه الحياة، إذ من البديهي أن الزهد في الدنيا وثرواتها وجمالها، والإعراض عن عبادة أموالها، وترك التقيد بلذائذها.. لا يجد لنفسه عند أصحاب النظرة المادية أي معنى قط. إنما الحديث هنا مع من يرى لهذه الحياة المادية شيئاً من المعاني أيضاً. فنقول لهؤلاء:

إن من الواضح البديهي لدى هؤلاء أن الإنسان ما لم يتحرر من قيود المادة وأغلالها، وما لم يحترز عن إغوائها وأهوائها، وما لم يفطم طبيعته عن ألبانها.. وأخيراً ما لم يكن يحسن جعل الدنيا وسيلة لا غاية..

(١) الامام علي ونهج البلاغة ج١ ص٢ .
(٢) الامام علي ونهج البلاغة ج١ ص٢ .

لا يتهيأ صعيد قلبه لتلقي الفيوضات الإلهية، والإشراقات الربانية، والإحساس المقدس، والشعور الطاهر، والفكر النيّر.. وأخيراً العقل السليم إلى جانب العاطفة الرحيمة. ولهذا قيل: إن الزهد شرط أساس لإفاضة المعرفة، وله بها علاقة وثيقة.

ومن الواضح أيضاً أن عبادة الحق والحقيقة - بكل ما لهما من المعاني الواقعية - والتلذذ في طاعتهما، وذكر الله الحق المطلق في كل حال، والأنس بالخالق ولطفه حين خدمة المخلوق.. يتنافى مع عبادة النفس والنفيس، والتقيد باللذة، والوقوع في أسار المادة وزخرفها وزبرجها.

بل وفوق هذا نقول: ليست عبادة الله هي التي تستلزم نوعاً من الزهد في الدنيا فقط، بل أن الالتزام والغرام بأية عبادة أو ريادة، في دين أو مذهب، أو فكرة أو مبدأ، أو قومية أو وطنية.. تستلزم نوعاً من الزهد والإعراض عن الشؤون المادية أيضاً!

إلّا أن الفرق بين العلوم والفلسفات والتعشق للخيال، وبين الصحيح من العبادات، وهو: أن العبادة، بما أن مقرّها القلب أو الفكر فهي لا تقبل الضرّة أو الرقيب. لا مانع من أن يتعبد العالم أو الفيلسوف بدراهم المادة ثم يجول بفكره في المسائل الفلسفية أو المنطقية أو الطبيعية أو الرياضية. ولكن لا مجال في فكر هذا الفيلسوف أو قلب هذا العالم للتعبد والالتزام بتضحية من تلك التضحيات الإنسانية، أو المبدئية أو

المذهبية، بل وحتى القومية منها الوطنية.. فضلاً عن محبة الخالق في خدمة المخلوق. ولهذا نقول أن إبعاد القلب عن التقلب بالمادة العمياء، وإخلاءَهُ عن أصنام الذهب والفضة الغراء، شرط ضروري للتربية المعنوية في الإنسان.

وقد قلنا أنه لا ينبغي الخلط بين التحرر عن قيد الذهب والفضة وعدم الاعتناء بكل ما يتبدل بهما، وبين الرهبنة والفرار عن المسؤولية، بل أن المسؤولية إنما تجد حقيقتها في ظل هذا الزهد، ولا تظل ألفاظاً جوفاء وادعاءات فارغة لا ضمان لها.

٣. الإيثار:

من نتائج الزهد في الإسلام الإيثار. وهو ضد الأثرة، والأثرة: تقديم الشخص لنفسه ومصالحها ومنافعها على غيره، والإيثار: هو تقديم الشخص غيره على نفسه.

والزاهد يختار العيش بكل بساطة وقناعة، ويضيّق على نفسه في الحياة، من أجل راحة الآخرين، وإنما يهب ماله للفقراء لأنه إنما يلتذ بنعم الحياة حينما لا يرى معه فقيراً ينام بلا عشاء، فهو يلتذ بإعطاء الآخرين وإطعامهم وكسوتهم أكثر من راحة نفسه وطعامها وكسائها، وإنما يتحمل الجوع والحرمان والعناء من أجل راحة الآخرين وهنائهم. وهذا هو الإيثار.

والإيثار من أعظم مظاهر الجلال والجمال والكمال الإنساني المأمول، وإنما يستطيع الرقي إلى هذه القمة الشامخة من العمل الصالح أناس عظماء من أمثال علي والزهراء وابنيهما السبطين الحسنين أصحاب الكساء عليهم السلام، الذين نزلت في شأنهم هذا (سورة هل أتى) مرآة صافية باقية تعكس للأجيال المتعاقبة ذلك الكمال المتمثل في هؤلاء العظماء الذين ﴿**يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾(١)، وهم يقولون: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾(٢).

وقد نالوا بهذا الإيثار أكمل الكرم والسخاء والجود، إذ بذلوا ذلك الميسور من أقراص الشعير، مع عسرهم الشديد، ولم يراعوا في ذلك القريب والبعيد، فأعطوا الأسير كما أعطوا اليتيم والمسكين. ولذلك دوّى هذا العمل الصالح من هؤلاء العظماء في السماء، حتى نزل في حقهم قرآن يتلى كل صباح ومساء!

وكانت الزهراء عليها السلام تقوم في محرابها لربها حتى تتورم قدماها، وهي تدعو لجيرانها، فسألها ابنها الحسن عليه السلام يوماً: «**أماه! ما لي أراك تدعين لجيراننا ولا تدعين لنا**»؟ فقالت: «**الجار، ثم الدار**».

ويصف القرآن الكريم أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله في مدينته الطيبة فيقول: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ**

(١) الانسان: ٨.
(٢) الآية نفسها.

نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يصف المتقين في خطبته لهمام فيقول: «**نفسه منه في عناء والناس منه في راحة**»[٢].

وبما أن الإيثار يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، فكذلك الزهد يختلف هذا الاختلاف باختلاف الزمان والمكان، إذ أن الإيثار في مجتمع فقير كالمدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وآله يشتد أكثر منه فيها نفسها على عهد حفيده الإمام الصادق عليه السلام. ولعل هذا هو سر اختلاف السيرتين: النبي ووصيه عليه السلام في جانب وأبناؤهما الأئمة الأطهار عليهم السلام في جانب آخر.

إن زهد هؤلاء العظماء كان قائماً على فلسفة الإيثار، وأن الزهد الذي يبتني على فلسفة الإيثار ليس من الرهبنة في شيء بل هو عظمة إنسانية فذة نابعة من أنبل عواطف الإنسانية، وهو ينتج أقوى الروابط الاجتماعية على الإطلاق.

٤. المواساة:

ومن نتائج الزهد مواساة المحرومين ومشاركتهم في حياتهم. فإن هؤلاء حينما يقيسون أنفسهم بأمثالهم من بني الإنسان وهم أغنياء يحسون في قرارة نفوسهم بالفقر والحرمان من ناحية، وتأخر عن أمثالهم

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) نهج السعادة ج٤ ص٢٨٧.

من الناس من ناحية أخرى. ولا يستطيع الإنسان بطبعه أن يرى غيره ممن لا فضل له عليه يأكل ويتمتع ويفرح ويمرح، ثم يقف هو جائعاً حزيناً كئيباً وقفة المتفرّج.

وهنا يحس المتدين بمسؤولية ملقاة على عاتقه تثقل كاهله، أمام هذا الواقع السيئ، فهو يشعر في قرارة نفسه الصافية بنداء الضمير والوجدان الإنساني الحي الذي عبّر عنه الإمام (عليه السلام) فقال: «**أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم**»[1]، فيشعر بمسؤوليته تجاه هذا الواقع السيئ وفاءً بما أخذ الله عليه وما عاهد عليه الله إذ آمن بالله وكتبه ورسله.

وإذا لم يستطع ذلك بيد أو لسان فلا أقل من الإيثار ومقاسمة ما عنده لهؤلاء الفقراء المعوزين، سعياً في سعادتهم وترسم واقعهم المقيت - كما فعل ذلك ثلاثة من أئمتنا: الحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام - وإذا لم يستطع ذلك أيضاً لكثرة الضحايا في هذا الميدان فلا أقل من أن يضمّد جراح هؤلاء الضحايا - ضحايا قسوة المجتمع الظالم - ببلسم المواساة ومشاركتهم في آلامهم وهمومهم، والتساوي معهم في فقرهم.

---

(١) نهج السعادة:ج٢ ص٣٦٢.

وإنّ لمواساة الآخرين في أحزانهم أهمية عظمى، لاسيما في حياة أئمة الأمة، أولئك الذين تنظر إليهم الأمة لتقتدي بأفعالهم وأقوالهم. ولذلك نرى أن الإمام عليه السلام قد زهد في حياته في الخلافة أكثر من أي وقت مضى، وكان يقول في ذلك: «**إنّ الله فرض على أئمة العدل: أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيّغ[1] بالفقير فقره**»[2].

ويقول عليه السلام في كتابه إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الأنصاري): «**أأقنع من نفسي بأن يُقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون (أسوة) لهم في جشوبة العيش.. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟! أو أكون كما قال القائل:**

وحسبك داء أن تبيت ببطنة

وحولك أكباد تحن إلى القدّ»[3]

نعم، كان الإمام عليه السلام هو هكذا، ولكنه كان إذا سمع برجل يضيّق

(١) يهيج بالفقير ألم الفقر فيهلكه.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد :ج١١ ص٢٣٧.

(٣) الامام علي ونهج البلاغة:ج١ ص٢.

على نفسه كان ينكر عليه ذلك، فقد شكا إليه العلاء بن زياد الحارثي الهمداني أخاه عاصم بن زياد، فقال له وماله؟ قال: لبس العباءة، وتخلّى عن الدنيا! قال: «**عليّ به**». فلما جاء قال له: «**يا عُديّ نفسه! لقد استهام بك الخبيث! أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى أحل الله لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك**»!

فقال: يا أمير المؤمنين! هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك؟!

فقال عليه السلام: «**ويحك! إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس..**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**إن الله جعلني إماماً لخلقه، ففرض عليّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس، كي يقتدي الفقير بفقري ولا يُطغي الغني غناه**»[2].

وقال رجل لأبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «أصلحك الله! ذكرت أن علي بن أبي طالب كان يلبس الخشن والقميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجديد»؟!، فقال له: «**إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر عليه، ولو لبس**

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد:ج١١ ص٣٢.
(٢) نهج السعادة:ج١ ص٢٨٩.

مثل ذلك اليوم لشُهِّر به»[١].

إذن فهذا الزهد الناتج عن فلسفة المواساة - كما ترى بوضوح - لا يمت إلى الرهبنة بشيء، وليس - كما يقولون - فراراً من المسؤولية وإعراضاً عنها، بل هو المواساة لآلام الفقراء والضعفاء.

الزهد ضمانة الدارين

لابد لكل مسلم من معرفة أنّ للزهد طعماً ونكهة لا يمكن إدراكها إلّا بعد تجربته، حيث أنّ فيه:خير الدنيا... وذلك بإسعاد الروح وحصولها على اللذّة المعنوية، التي هي أفضل من لذّة الجسم المادّية ألف ألف مرّة... وهو فوق ذلك فيه خير الآخرة.. فإنّ الآخرة هي الأمر الذي يلزم على العاقل أن يطلبه ويسعى لنيله بكل ثمن، فإن الحياة الدنيا ليست إلّا دار غرور، وما هي إلّا جيفة وطلابها كلاب، كما في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها**»[٢].

وهناك من ينبري ليقول إنّ اللازم أن نتكلم عن الحياة، فإنّ تأخر المسلمين سببه هو تأخرهم عن ركب الحياة، فكيف تتكلّم عن الموت؟ والجواب إنّا نتكلّم عن الحياة في النشأتين قال الله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا**

---

(١) التفسير الصافي:ج٢ ص٢٢٨.

(٢) ميزان الحكمة ج٣:ص٢٦٤.

الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[١]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[٢]، والحياتان إنما تحصلان بالزهد، فقد قال الإمام المرتضى(عليه السلام) في وصف المتقين: «**شاركوا أهلَ الدنيا في دنياهم، ولم يشارِكوا أهل الدنيا في آخرتهم**»[٣].

لذلك نرى أن المسلمين قد فاتتهم حياتهم الدنيا، حين فاتهم الزهد بمعناه الحقيقي واتخذوا التكالب شعاراً، وقد قيل أن أحد زعماء الإلحاد قال: «إنّ المسلمين حينما كانوا للسماء أتتهم الأرض منقادة، وحين انصرفوا إلى الأرض فاتتهم الأرض والسماء».

إنّ المادّة ببهرجتها لوّثت الفطرة وغزت محلّ الروح، فصارت بذلك آلة للهدم... ولكن حينما تأخذ الروح محلها ومجراها وتوضع المادّة في مكانها الذي خُط لها لابدّ أن تكون المادّة آلة للبناء.. ولو شبّهنا الدنيا والآخرة، بشخص يريد أن يتزوج من فتاة جميلة جدا تُغري بجمالها.. وقد اشترطت عليه بمهر غال، فإن هذا الإنسان عندئذٍ يكدّ ويعمل كل ما هو ممكن لتحصيل ذلك المهر المعيّن والذي يراه مناسباً في سبيل الظفر بتلك الغانية أو الفتاة.. فكما أنّ الرجل العاشق يكدح في ليله ونهاره لكن فكره مع الفتاة، كذلك الزاهد فإنه مع الآخرة..

---

(١) الانفال:٢٤.

(٢) العنكبوت:٦٤.

(٣) نهج السعادة ج ٤ ص ٧٠.

إنه يعمل ويشتغل ويجتهد... لكن كل فكره مشدود نحوها؛ لأنها دار النعيم والخلود الأبدي، يكدح لأجلها، ويعمل ويكسب لعياله لأن (الكاسب حبيب الله)[1]،وكما يعمل ويكدح من اجل خير العباد والبلاد ابتغاء جزاء الآخرة لأنها خير وابقى...

الزهد السلبي

بدأ الزهد بمعناه الشرعي الاصيل بالإعراض عن كل ما يبعد الانسان عن ساحة الحق تعالى ويجعله منغمساً في شهوته ولذته ولهوه ولعبه وما الى ذلك من افعال وسلوكيات يترتب عليها التيه والضلال في سُبل الشيطان والابتعاد عن سبيل الرحمن.

لكن الذي حدث فيما بعد لاسيما في الحقبة العباسية هو دخول ثقافات غريبة على المجتمع الاسلامي اصبحت فيما بعد مذهباً واتجاهاً له أصوله وقواعده، هذه الثقافات دخلت مع الاقوام الذين تشرفوا بالإسلام، إلّا أنهم لم يستطيعوا بعد أن يتخلصوا من آثار تلك الافكار والسلوكيات القديمة الغريبة على الاسلام وجزئياته، فعمدوا بشعور منهم أو بلا شعور الى استدخال تلك القيم والسلوكيات وإلباسها ثوب الاسلام، وصارت الرهبنة والتصوف والدروشة من مظاهر المسلم الزاهد العابد عند اصحاب هذا المذهب أو ذلك الاتجاه، وبالتالي قد تحول مفهوم الزهد من معناه الاسلامي الاصيل الى مفهوم اخر بعيد

(١) الاقتصاد الاسلامي ج٢٣ ص١.

وغريب عن روح الاسلام المحمدي واهدافه النبيلة، فزهد هؤلاء تتخلله رياضات روحية وافعال منفرة لا تقبلها الفطرة السليمة

فالرهبنة ـ كمصطلح ـ أُخذت من (الرهبة) التي جاءت بمعنى الخوف من الله ﷻ، وكما يقول الراغب الاصفهاني في مفرداته، الخوف الذي يكون ممزوجاً بالزهد والاضطراب، والترهب يعني: (التعبد والعبادة)... والرهبانية بمعنى:(شدة التعبد)، وهي بذلك قد كانت صفة ممدوحة محمودة بين المسيحين الاوائل، رغم انها لم تكن اصلاً وإلزاماً فيما جاء به المسيح عليه السلام من عند الله تعالى، إلّا أن أتباع المسيح عليه السلام اخرجوا الرهبانية من حدودها وجرّوها الى الانحراف والتحريف، ولهذا فان الاسلام ندد بها بشدة، حتى ان كثيرا من المصادر الاسلامية قد اوردت الحديث المعروف: (لا رهبانية في الاسلام) [1].

فالرهبنة تُعد أبرز مظهر للزهد السلبي والتي كانت تنتشر ولا تزال في اوساط المسيحين، فمن مصاديقها التي عُرفت هو تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرغ للرهبنة والانزواء الاجتماعي، واهمال المسؤوليات الانسانية في المجتمع كافة، والركون الى الصوامع والاديرة البعيدة... اضافة الى كثير من المفاسد في الاديرة ومراكز الرهبان.

إنّ هؤلاء الرهبان قد قدموا كثيرا من الخدمات الانسانية الجليلة

---

(١) مجمع البحرين: الطريحي، مادة رهب.

التي لا تُنكر ـ كتمريض المصابين بأمراض خطرة وامـراض منفرة كالجذام وما شابه، اضافة الى القيام بالتثقيف والارشاد والتوعية بين اقوام بدائية متخلفة ومتوحشة وقيامهم ببرامج التعليم والتحقيق، وفوق كل ذلك ما حرموا به انفسهم من متع ولذائذ معتقدين أنها في سبيل الله ـ ولكنه بالرغم من كل ذلك فإنّ هذه الامور تعتبر قليلة الاهمية قياساً الى المفاسد التي اقترنت برهبنتهم هذه وترتبت عليها.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلق الانسان اجتماعياً، وكل تكامل فيه سواء كان مادياً أم معنوياً فهو مبتنٍ على الخلقة والكينونة الاجتماعية له، وان الاديان وما جاءت به من شرائع وقوانين لم تلغ دور الانسان في المجتمع، بل دعمت ذلك الـدور وهذبته واوجـدت له الاسس والقواعد التي تتكفل بجعله انساناً فعالاً في مجتمعه يفيد ويستفيد في تكوين مجتمع متماسك ومتكافل وفق ضوابط منطقية رصينة اجادت بها تلك الرسالات والأديان على بني البشر.

ومن خلال ما تقدم نفهم أن هكذا زهداً بعيد جداً عن مضمون الدين الاسلامي الحنيف، وهو على نقيض تام مع الزهد الشرعي الايجابي الذي بينه نبينا صلى الله عليه وآله واختطه واقتفاه من بعده ائمة الهدى عليهم السلام، ذلك الزهد الذي يعني البساطة في الحياة والابتعاد عن التبهرج والزخرفة الدنيوية، وعدم الوقوع في أسر المال والموقع والمركز والمنصب، والتحرر من كل اشكال الماديات، والترفع عن المغريات والملذات لكي تتم

المعايشة بصورة اجتماعية هانئة وهادئة وفوق ذلك انها هادفة.

ولنا في قصة عثمان بن مضعون عبرة، ذلك الصحابي الذي فقد ابنه العزيز، فبعد ان مات ابنه هذا لم يعد يخرج للعمل حزناً عليه، وانشغل في العبادة وترك كل شيء سواها، وجعل من بيته مسجداً ومعبداً، واعتزل المجتمع حتى وصل خبره رسول الله صلى الله عليه وآله، فامر بإحضاره، وعندما وصل عثمان قال له النبي صلى الله عليه وآله: «**يا عثمان، ان الله لم يكتب علينا الرهبانية، انما رهبانية امتي الجهاد في سبيل الله**»[1].

لعمري ان في هذه القصة بياناً شافٍ وتوضيحاً كاف عن الشرح والتأويل، وفيها الاشارة الوافية من ان الاعراض عن الحياة المادية والانزواء الاجتماعي، وتعطيل الاعمال بصورة سلبية لا يرتضيه الله تعالى، وإن كان ذلك فيجب ان يصب في مسير إيجابي، مسير الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته وجعلها هي العليا.

كلمات مؤثرة لأمير الزاهدين عليه السلام

أي كلمات تلك التي تخترق كل الحُجب، وتغور في أعماق النفس لتضع بصماتها الوردية على قلب مسوّد بالذنوب والآثام..! فتبعث فيه

(١) بحار الانوار: ٧٠/ ١١.

حياة الأولياء والصالحين والحب الإلهي!!كيف لا وهي قد نبعت من قلب لم يُسكن فيه إلّا الله وحده!! وأصدح بها لسان صدقٍ لم يعصِ الله طرفة عين أبدا!!، نعم إنها كلمات كالمطر تنزل على قلوب اشتدّ بها الظمأ والعطش في زمن أقبلت فيه الدنيا الى أهلها فتشبثوا بها!! زمن الغربة عن فيض الرحمن والاتكال الى أولياء الشيطان!! كلمات لم يُمحِها حقد الأعداء ولا خوف الاولياء!! إنه كلام علي بن أبي طالب عليه السلام... فمرة يخاطب الدنيا و يقول واصفا إيّاها:

«... **يا دنيا يا دنيا إليك عني! أبي تعرضت أم إلي تشوقت لا حان حينك غري غيري لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثا لا رجعة لي فيها فعيشك قصير و خطرك يسير وأملك حقير، آه! من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظم المورد**»... ومرة يتكلم مع المغرورين فيقول لهم: «**يا أهل الغرور ما ألهجكم بدار خيرها زهيد وشرها عتيد ونعيمها مسلوب [وعزيزها منكوب] ومسالمها محروب ومالكها مملوك وتراثها متروك، يا أسرى الرغبة أقصروا فإن المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلّا صريف أنياب الحدثان**»... ومرة أخرى يخاطب الناس عموما: «**يا أيها الناس ازهدوا في الدنيا فإن عيشها قصير وخيرها يسير وإنها لدار شخوص ومحلة تنغيص وإنها لتدني الآجال وتقطع الآمال ألا وهي المتصدية العنون والجامحة الحرون والمانية الخؤون...**»، والمتصدية: المرأة تتعرض للرجال تميلهم إليها، ومن الدواب ما تمشي معترضة خابطة. –

والعنون - بفتح فضم - مبالغة من عن إذا ظهر، ومن الدواب المتقدمة في السير، شبه الدنيا بالمرأة المتبرجة المستميلة، أو بالدابة تسبق الدواب وإن لم يدم تقدمها، أو الخابطة على غير طريق. والجامحة: الصعبة على راكبها. والحرون التي إذا طلب بها السير وقفت والمائنة: الكاذبة. والخؤون: مبالغة في الخائنة.

وقال عليه السلام أيضاً: «**الزهد مفتاح صلاح**»(١).

وقال عليه السلام كذلك: «**أيها الناس الزهادة قصر الأمل والشكر عند المنعم والورع عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم**»(٢).

وقال عليه السلام: «**أصل الزهد الرغبة فيما عند الله**»(٣).

وقال عليه السلام: «**من أحب السلامة فليؤثر الفقر ومن أحب الراحة فليؤثر الزهد في الدنيا**»(٤).

وقال عليه السلام: «**إن الدنيا لا يسلم منها إلا بالزهد فيها**»(٥).

وقال عليه السلام: «**قاتل الهوى: زاهد في الدنيا وراغب في الآخرة، يحب**

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٨٥ ح١٣٩٤.
(٢) روضة الواعظين: ص٤٣٤ مجلس في الزهد والتقوى.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٧٥ ح٦٠٣٣.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٧٥ح٦٠٣٤.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٧٥ ح٦٠٣٦.

الضيف ويكرم اليتيم ويلطف الصغير ويرفق الكبير ويعطي السائل ويعود المريض ويشيع الجنائز ...»[1].

مكانة الزاهد الحقيقي وكراماته

يروي الشيخ محمد كريم قصة عن استاذه الماهر في علم المعقول الشيخ محمود الحكيم.

يقول: في عصر أحد الايام جاء أستاذي الى المدرسة، وقال: انني أشعر بضيق في صدري واحتاج الى شيء من الراحة، فقررنا الذهاب الى تكية يجتمع فيها الناس لأقامة الشعائر الاسلامية ولتناول الطعام.

ذهب الشيخ لتهيئة السفرة على ان اتبعه بعد ذلك مع بقية الطلاب غير ان نزاعا نشب بين بعض الطلاب واضطررت للتدخل في تهدئتة فطال بنا الوقت حتى خيم علينا الظلام فلم نخرج من المدرسة لما كان يلازم الخروج بالليل من الاخطار والمخاوف لفقدان الامن.

وفي صبيحة اليوم التالي توجهت الى استاذي فرأيته في المسجد القريب من بيته حيران مضطربا غارقا في الفكر مشغول الحال والبال.

سلمت عليه فرد عليّ السلام ثم قال: لماذا لم تأتوا بالامس؟

بيّنت له السبب ثم سألته عن حاله يوم أمس وكيف قضى ليلته

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٧٥ح٦٠٣٨.

لاسيما وأنا أجد الاضطراب باديا على محياه.

قال لقد حدث لي شيء عظيم!

وأضاف: عندما تيقنت من عدم مجيئكم ولم أجد من اتحدث اليه لأنفس عن حالي وكربي خرجت أسير وحيداً في منتصف الطريق لمحت زاهدا جالسا على قارعة الطريق فناديته وكأنني وجدت فيه ضالتي:

يازاهد.

قال: نعم.

قلت له: ألا تقص لنا حكاية نتسامر بها؟

قال لا أعرف!

قلت له: فاقرأ لنا قصيدة من الشعر.

قال لي: لا أعرف!

هنالك قلت له: إذا كنت لاتعرف كل هذا فما الذي كان عندك حتى علوت على الناس؟

قال لي: لقد علمني شيخي أن أسلم كلما دخلت على أحد!

وما أن تفوّه بهذا الكلام حتى أحسست أنه أثلج صدري.

ثم قال لي الزاهد: شيخنا لابأس عليك تعال فاجلس هنا. وأشار

الى حصير كان جالسا عليه.

جلست على الحصير.

فقال لي: قل: لا إله إلّا الله.

وما أن لقنني كلمة التوحيد حتى كشف عن بصري أرى كل شيء مابين الثريا والثرى وكلما نظرت الى ماحولي من الأعلى الى الأسفل كنت أرى كلمة التوحيد منقوشة على كل شيء في السماءأ في الارضأ على الاشجار على الماء، على الجدار.. على كل شيء.

ولاأدري أي عالم كان ذلك العالم، لقد شاهدت عالما ذا صفاء عجيب.

قال لي ياشيخ، والآن استلق لتنام على الحصير فإنك قد أُصبت بإعياء وتعب.

فتغطيت بعباءتي، وجعلت أرمقه من تحت العباءة، لاأرى ماذا يفعل!

شاهدته يذكر ذكرا من الاذكار، فيخرج نور من فمه، ويصعد الى السماء، ثم سيطر عليّ النعاس، فغفوت إغفاءة نهضت بعدها، فلم أجد لذلك الزاهد من أثر.

لقد علمني الرجل:أن الزهد الحقيقي هو مصداق الحديث

القدسي: «**عبدي أطعني تكن مِثْلي أو مَثَلي، أقول للشيء كن فيكون**».

نعم أخي المؤمن هكذا هي مكانة الزاهد الحقيقي وهكذا هي كراماته! إنها فيوضات الكريم لعباده المخلصين!

الخاتمة

بعد الذي تكلمنا عنه وخضنا فيه، استطعنا أن نخرج بنتيجة مهمة في بحثنا المتواضع هذا، وهي أنّ الزهد لا يمكن الحياد عنه بالكامل! لأننا من دونه ـ ولو بشكل يسير وبسيط ـ سنعيش الضياع والتشرذم والخاتمة المؤلمة التعيسة، كما وأوضحت هذه الوريقات البسيطة الأهمية الكبرى للزهد ودوره في الصحة النفسية وما يترتب على ذلك من راحة وصحة جسمية، حيث قال علي عليه السلام عن ذلك: «**راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام**»...وبيّنا كذلك أثره الاجتماعي المهم في تنقية أجواء المجتمع من معظم الامراض التي تصيبه فيكون مجتمعا مستقرا سعيدا... ومما يجدر ذكره واستدراكه فإن الزهد هو ربح وخير، قال علي عليه السلام: «**الزهد متجر رابح**»[1]، والزهد حكمة وسلامة، قال صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «**يا أبا ذر ما زهد عبد في الدنيا إلّا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، ويبصّره عيوب الدنيا وداءَها ودواءَها، وأخرجه منها سالما الى دار السلام**»[2]، والزهد نور ومعرفة كما قال الصادق عليه السلام: «**إنّ**

(١) غرر الحكم:ص٢٧٦ ح٦٠٨٢.
(٢) البحار ج٧٤ ص٨٢ ح١.

الزُّهّاد في الدنيا نور الجلال عليهم وأثر الخدمة بين أعينهم، وكيف لا يكونون كذلك وان الرجل لينقطع الى بعض أثره عليه؟!»[1]...وبعد كل هذا وذاك أما يجدر بنا أن نخطوَ خطوة أولى في طريق الزهد؟! فنكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح الذي يوصل الى سعادة الدارين...

(١) البحار ج٧٥ ص٢٧٨ ح١١٣.

المحتويات

المقدمة	٣
الزهد لغة:	٥
الزهد اصطلاحا:	٥
الزهد في الكتاب الكريم:	٥
زهد النبي صلى الله عليه وآله:	٦
زهد الوصي عليه السلام	٩
زهد عيسى عليه السلام وامه الطاهرة	١١
كيف العروج نحو الزهد؟	١٢
مقومات الزهد	١٣
الزهد سهل ممتنع!	١٦
الزهد قاعدة الاستقامة	١٧
الزُّهد علامة أهل الخير	١٨

الزهد وأثره على الصحة النفسية	١٩
الزهد واثره في المجتمع	٢٣
تأثير الزاهد في الناس	٢٥
الزهد في المال	٢٦
مالقصور إلّا خانات	٢٨
هل السعادة متوقفة على الغِنى والثراء؟	٢٩
القناعة وعلاقتها بالزهد	٣١
أهم نتائج الزهد	٣٥
١. التحرّر:	٣٥
٢. المعنوية:	٣٨
٣. الإيثار:	٤٠
٤. المواساة:	٤٢
الزهد ضمانة الدارين	٤٦
الزهد السلبي	٤٨
كلمات مؤثرة لأمير الزاهدين عليه السلام	٥١
الخاتمة	٥٩